تدبر آيات سورة محمد

لسورة محمد ﷺ
وتسمى بسورة القتال

وهي مدنية، وتعتني بالأحكام التشريعية.

موضوع السورة :

لقد بينت السورة أن رسول الله ﷺ نبي المرحمة، ونبي الملحمة، وأنه يقتص من الظالم للمظلوم، ومن الواتر للموتور، وأنه لا يدع البغي يمشي في الأرض متكبرًا، بل يرغم أنفه، ويقلم أظافره. ولكي تعرف جو هذه السورة، سل نفسك أولاً: ماذا يُكنه أهل البوسنة في قلوبهم للصربيين الذين ذبحوا رجالهم، واغتصبوا نساءهم ؟ هل يكنون إلا البغضاء والمقت ؟

وما يكنه أهل فلسطين لليهود الذين أخرجوهم من ديارهم، وقتلوا الأطفال الأبرياء، والنساء والشيوخ، وخربوا ديارهم، واسترخصوا دماءهم وحقوقهم، هل يُكنون إلا الغضب والحقد ؟ [1]. وماذا يقول القرآن الكريم للمغلوب المستباح، إذا لقي خصمه في الميدان ؟ إنه يقول له: ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴾ [التوبة: ١٤، ١٥].

أو كما جاء في هذه السورة: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ﴾ [محمد: ٤].

إن الحرب دواءٌ مُرٌّ، ولكن المرض أمرّ، وكما قال شوقي :

الحرب في حق لديك شريعة ومن السموم الناقعات دواءٌ [2]

فالقتال: هو العنصر البارز فيها: وهو موضوعها، فهو إعلان حرب منه - تعالى - على أعدائه وأعداء دينه منذ اللفظة الأولى في السورة.

* * *

(١) التفسير الموضعي للشيخ محمد الغزالي .

(٢) ديوان شوقي .

ولذلك قيل: حكمها في البسملة حكم (**براءة**) أي: لا بسملة معها، لبدايتها بإعلان الحرب على الكفار: أعداء الله وأعداء رسوله الذين حاربوا الإسلام.

وقد كان المسلمون في ميادين القتال: يتلون هذه السورة جماعات بصوت عال. ولما كانت فواصل الآيات تنتهي بميم ساكنة، فإن الوقوف الجماعي عليها، له دويّ يخلع قلوب الأعداء [1].

* * *

(١) في ظلال القرآن الكريم لسيد قطب.

أهم دواعي النصر :

النداء الأول

يقول الله - تعالى -:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (٨) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [القتال:٧-٩].

صلة النص بما قبله :

لما ذكر الحق ﷻ منْزلة الشهداء عنده، فقال: ﴿ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [محمد:٤]. بَيَّن الطريق الصحيح المؤدي إلى الشهادة والجنة، فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ ﴾.

معاني المفردات والتراكيب :

﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ ﴾: الله هو القوي المتين، ليس بحاجة إلى من ينصره، ولكن نصر الله بمعنى: نصر دينه وشرائعه والتمسك بهما خير تمسك.

﴿ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ أي: لا يجعل لأعدائكم عليكم سبيلاً، فلا تفرون إلا تحرفًا لقتال أو تحيزًا إلى فئة، كما قال - تعالى -: ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [الأنفال:١٦].

﴿ فَتَعْسًا لَّهُمْ ﴾: أي: أن الله يخذلهم ولا يوفقهم.. كما جاء في الحديث: «**تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد القطيفة، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش**» [1] أي: فلا شفاه الله.

﴿ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أي: أحبطها وأبطلها؛ لأنها لم تقم على أسس الدين الحق.

من لطائف القرآن الكريم :

الأولى: من النكات البلاغية المضطردة: أن التعبير بصفة الإيمان يستلزم مزيدًا من التمسك بمبادئ إيمانهم حتى يكونوا مؤمنين عقيدة

---

(١) أي: إذا دخلت في بدنه شوكة فلا يستطيع إخراجها، والحديث سبق تخريجه.

وقولاً وعملاً، وبهذا يكونون جديرين بهذا الشرف العظيم: وهو نداء الله لهم.

الثانية: وفي التعبير عن النصر بصيغة المضارع: يتضمن التجدد والاستمرار حتى تصبح المناصرة سجية في نفوسهم وقلوبهم.. أما مَنْ ثبت مرة أو مرتين، ونكص على عقبيه، فلا يستحق هذا التكريم وهو نصر الله - تعالى - لهم في الدنيا، وتثبيت الله ﷻ لهم في الآخرة.. كما جاء في الحديث: «**إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر**»[1].

الثالثة: وعبر عن الكافرين بجملة الصلة ﴿والَّذِينَ كَفَرُوا﴾ للذم والتوبيخ، وللإشارة إلى أن كفرهم هو السبب في شقائهم وتعاستهم العظيمة.

الأحكام الفقهية :

الحكم الأول: وجوب مناصرة الله ﷻ

الله ﷻ هو العزيز الجبار، يُجير ولا يُجار عليه، ونصر الله - سبحانه وتعالى - معناه: نصر شرعه ودينه، والتمسك بهما، وعلى هذا يتم نصر الله جل وعلا لعباده المؤمنين في الدنيا، وتثبيت أقدامهم في الآخرة. ومن جملة مناصرة الله - سبحانه وتعالى -. القيام بالجهاد إلى يوم القيامة.. وقد نعى الله على المتقاعسين بقوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وأَبْنَاؤُكُمْ وإِخْوَانُكُمْ وأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا ومَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ ورَسُولِهِ وجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ واللَّهُ لا يَهْدِي القَوْمَ الفَاسِقِينَ﴾ [التوبة:٢٤].

الحكم الثاني: بأن الله منزه عن الظلم :

الله ﷻ مُنَزه عن الظلم، وذلك أن الظالم يقع في ظلم غيره؛ لأنه محتاج إلى تلك المظلمة، أما الله جل وعلا فهو الغني عن الخلق وما يعملون، قال - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ واللَّهُ هُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ (١٥) إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ويَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) ومَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر:١٥-١٧].

---

(١) **صحيح**: رواه أبو داود، كتاب: الملاحم، باب: الأمر والنهي، حديث (٤٣٤٤)، والترمذي، حديث (٢١٧٤)، وابن ماجه، حديث (٤٠١١). وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه.

وقال - سبحانه وتعالى -: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦].

الحكم الثالث: أسباب حبوط العمل :

والمحبطات للأعمال كثيرة، منها: كراهية ما أنزل الله - تعالى - على أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام ورفض العمل به استخفافًا، أو إنكارًا لمشروعيته أو مقرونًا بالرياء، أو غير متصف بصفات العمل الصالح [١]. وإلى هؤلاء وأمثالهم يشير القرآن الكريم بقوله: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣].

الحكم الرابع: في سلامة القرآن الكريم من التناقض :

والأصل في ذلك قوله - تعالى -: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩]، وقوله - جل وعلا -: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢]. ومما قرره القرآن: أن الجزاء من جنس العمل... كما قال - سبحانه وتعالى -: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ [الحج:٤٠].

ولكن: كيف يصح الوعد لهم بالنصرة، مع أنهم في بعض حروبهم نصروا الله سبحانه بأن جاهدوا، ومع ذلك لم ينصرهم ؟

والجواب: يحتمل أنه يريد: أن الغلبة لكم على كل حال، وإن غُلبتم في الظاهر فمن نصر دين الله، كان حقًا على الله أن ينصره؛ لقوله - تعالى -: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧]. وما هُزم المسلمون قط إلا بسبب خطأ يرتكبونه، أو فعل يكسبونه [٢] يقول ﷻ: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى:٣٠].

ويحتمل أنه يريد: أن ينصرهم في الآخرة ويثبت أقدامهم على الثواب لأن ذلك نصر لهم، فيجري مجرى قوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى:٤٠].

المعنى الإجمالي :

يا من آمنتم بالله - تعالى - ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًّا ورسولاً إن تنصروا الله بنصر دينه، والمحافظة على تعاليمه، ينصركم

---

(١) وهي النية الشرعية، واتباع المنهج المحمدي، والموافاة على ذلك .

(٢) جامع البيان في متشابه القرآن .

على أعدائكم في الدنيا ويثبت أقدامكم في الآخرة.

ومن المعلوم: أن تثبيت الأقدام: يسبق النصر، ويكون سببًا فيه.. هذا صحيح، ولكن تأخير ذكر العبارة يُوحي بأن المقصود معنى آخر من معاني التثبيت. فالنصر ليس نهاية المعركة بين الكفر والإيمان.

فللنصر آداب ينبغي أن تتحلى بها النفوس - في محيط السلوك والواقع - منها:

أ – عدم الزهو والبطر.

ب – وعدم التهاون والتراخي.

وكثير من الناس يثبت على المحنة والبلاء، ولكن القليل الذي يثبت على النصر والنعماء.

وصلاح القلوب وثباتُها على الحق - بعد النصر - منْزلة أخرى وراء النصر[1].

* * *

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب.

وجوب الطاعة الشرعية وإتمامها
النداء الثاني

يقول الله - تعالى -:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (٣٣) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (٣٤) فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ [محمد:٣٣-٣٥].

صلة النص بما قبله :

بعد أن ذمَّ الحق ﷻ الكفْر وما يرتبط به من أعمال، وأن أعمال الكافرين سيحبطها الله - جل وعلا - وذلك في قوله - سبحانه وتعالى -: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [محمد:٣٢]

وهنا أمر المؤمنين أن يطيعوا الله والرسول ﷺ ولا يسيروا على نهج الكافرين.

معاني المفردات والتراكيب :

﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾: الطاعة كل ما يُتقرب به إلى الله - تعالى - من معتقد أو قول أو عمل من الأعمال الظاهرة أو الباطنة. وطاعة الرسول ﷺ اتباع سنته استجابة لأمر الله - جل وعلا -.

﴿ ولا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ :بأن تُلحقوا بها ما يفسدها، أو تخرجوا منها قبل تمامها فيضيع ثوابُها، من بطل الشيء يبطل بطلانًا: أي: ذهب ضياعًا وخُسرًا.

﴿ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾: أي: أعرضوا، من الصد، وهو الإعراض والصدوف، قال - تعالى -: ﴿ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ [النساء:٦١].

﴿ فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا... ﴾ أي: لا تَفْتُروا ولا تضعفوا، ولا تجبنوا عن قتل العدو من الوهن. أي: الضعف في النفس والعمل. قال ﷻ: ﴿ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٤٦].

﴿ ولَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾: أي: لن ينقصكم من ثواب أعمالكم شيئًا، ولن يظلمكم، من: وَتَرَهُ حقه وماله: نقصه إياه، وفي حديث النبي ﷺ: «من فاتته صلاة العصر فكأنما وُتِر أهله وماله»[١].

من لطائف القرآن الكريم:

الأولى: سبق أن ذكرنا مرارًا أن النداء بصفة الإيمان، يدعوهم إلى مزيد من التمسك بما يقتضيه الإيمان، وإلا كان إيمانهم مجرد دعوى تحتاج إلى دليل تقوم عليه.

الثانية: أفرد الرسول ﷺ بالذكر ﴿ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ اهتمامًا بسنته، ولأن السنة قد تستقل بالتشريع، وإن كانت بوحي من الله ﷻ[٢].

الثالثة: في النهي عن إبطال الأعمال بصيغة المضارع، إشارة إلى أن التجدد والاستمرار في تلك الموبقات: هو المحبط للأعمال.. أما من وقع فيها جهلاً أو نسيانًا، ثم تاب التوبة النصوح.. فإنها تجب ما قبلها من الذنوب.

الرابعة: قال الرازي - رحمه الله - في قوله - تعالى -: ﴿ ولا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ يحتمل وجوهًا:

أحدها: دوموا على ما أنتم عليه، ولا تشركوا فتبطل أعمالكم..قال- تعالى-: ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر:٦٥].

الوجه الثاني: لا تبطلوا أعمالكم بترك طاعة الرسول، كما أبطل أهل الكتاب أعمالهم بتكذيب الرسول وعصيانه، ويؤيده قوله - تعالى -: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ولا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴾ [الحجرات:٢].

الثالث: لا تبطلوا أعمالكم بالمنّ والأذى، كما قال - تعالى -:

---

(١) رواه مسلم: كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: التغليظ في تفويت صلاة العصر، حديث (٦٢٦)، والنسائي، حديث (٤٧٨)، وأحمد في مسنده (١٤٥/٢) حديث (٦٣٢٤).

(٢) وقيل إن ذكر الرسول، من باب عطف المسبب على السبب، يقال: اجلس واسترح، وقم وامش؛ لأن طاعة الله تحمل على طاعة الرسول.

﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ ﴾ [الحجرات:١٧].

وقد اختلف العلماء فيما يبطل الأعمال على أقوال :

فقال الحسن: المعاصي والكبائر.

وقال عطاء: الشك والنفاق **(وهو منقول عن ابن عباس)**.

وقال ابن عباس: الرياء والسمعة **(ونقل عن ابن جريج)**.

وقال مقاتل: المنّ.

وقيل: العُجب، فإنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب.

وقيل: المراد بالأعمال: الصدقات أن تعطلوها بالمن والأذى.

قال القرطبي: وكله متقارب، وقول الحسن يجمعه [(١)].

الخامسة: قوله - تعالى -: ﴿ وأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ ﴾ استعمال العلو في رفعة المنْزلة مجاز مشهور، أي: أنتم أعز منهم لأنكم مؤمنون والحجة لكم، وإن غلبوكم في بعض الأوقات، وذلك كقوله- تعالى-: ﴿ ولِلَّهِ العِزَّةُ ولِرَسُولِهِ ولِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون :٨].

وقيل: ﴿ وأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ ﴾ : أي: أنتم أعلم بالله منهم.

وقال الجصاص: أي: وأنتم أولى بالله منهم. وكلها متقاربة، فالإيمان يرفع منْزلة أهله ويعزهم.

السادسة: في قوله - تعالى -: ﴿ ولن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ وعد؛ لأن الله - تعالى - لما قال: ﴿ واللَّهُ مَعَكُمْ ﴾ كان فيه: أن النصر بالله لا بكم، فكأن القائل يقول: لم يصدر مني أي عمل له اعتبار، فلا استحق تعظيمًا، فقال: هو ينصركم، ومع ذلك لا ينقص من أعمالكم شيئًا، ويجعل كأن النصرة جعلت بكم، ومنكم، فكأنكم مستقلون في ذلك، ويعطيكم أجر المستبد [(٢)].

السابعة: في النص الكريم: دعوة إلى العزة والكرامة، وحض

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٢٥٥/١٦)، التفسير الكبير (٥٥١/٧)، روح المعاني (٧٩/٢٦)، زاد المسير (٤١٣/٧) .

(٢) التفسير الكبير ٥٥٢/٧.

للمؤمنين على الجهاد لمجابَهة أعدائهم دون وهن أو خور؛ لأن المؤمن لا يرضى بحياة الذل والهوان[١].

سبب النزول :

١- أخرج عبد بن حميد وغيره عن أبي العالية قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يرون أنه لا يضر مع (لا إله إلا الله) ذنب، كما لا ينفع مع الشرك عمل.. حتى نزلت: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ فخافوا أن يبطل الذنب العمل. ولفظ عبد بن حُميد: فخافوا الكبائر أن تحبط أعمالهم.

٢- وأخرج ابن جرير وغيره عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنا معاشر أصحاب محمد ﷺ نرى أنه ليس شيء من الحسنات إلا مقبولاً، حتى نزلت: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ فلما نزلت هذه الآية قلنا: ما الذي يبطل أعمالنا؟ فقلنا: الكبائر الموجبات، والفواحش، فكنا إذا رأينا مَنْ أصاب شيئًا منها قلنا: قد هلك، حتى نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ فلما نزلت كففنا عن القول في ذلك، وكنا إذا رأينا أحدًا أصاب منها شيئًا خفنا عليه، وإن لم يُصب منها شيئًا رجونا له[٢].

الأحكام الفقهية :

الحكم الأول :وجوب طاعة الله ورسوله ﷺ :

من أسباب النصر والتثبيت- كما ذكرنا في النداء الأول- جهاد الأعداء لتكون كلمة الله هي العليا.

وأيضًا من أسباب النصر والتثبيت: طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ وبهما يتم تحصيل السعادة في الدنيا والدين. وهذه الطاعة شاملة في أصول الدين وفروعه.

---

(١) روائع البيان ٤٣٦/٢.

(٢) البحر المحيط ٨٥/٨.

والطاعة: هي امتثال الأوامر، واجتناب النواهي على الوجه الشرعي، بالإخلاص والمتابعة، فهو خطاب للمؤمنين يدعوهم إلى مواصلة الجهاد.

الحكم الثاني: فيمن شرع في النافلة ثم أبطلها، هل يجب قضاؤها؟

يفهم من ظاهر قوله - تعالى -: ﴿ولا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ أن كل من دخل في قربة، لم يجز له الخروج منها قبل إتمامها.

واختلف العلماء في هذا الحكم على مذهبين :

فذهب الشافعي وأحمد إلى أن للمرء أن يترك النافلة إذا شرع فيها، ولا شيء عليه ماعدا الحج، فيجب عليه الإتمام، وأما في الصلاة والصوم، فيستحب له الإتمام ولا يجب.

وذهب أبو حنيفة ومالك إلى أنه ليس له ذلك، فإذا أبطله وجب عليه القضاء.

أدلة الشافعية والحنابلة :

أ- قالوا: هذا العمل تطوع، والمتطوع أمير نفسه، وإلزامه إياه مخرج عن وصف التطوع، قال - تعالى -: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ [1] [التوبة :٩١].

ب- وقالوا: في جواب الاستدلال بالآية: المراد بذلك: إبطال ثواب العمل المفروض، فنهى الرجل عن إحباط ثوابه، فأما ما كان نفلاً فلا؛ لأنه ليس واجبًا عليه.

واللفظ في الآية وإن كان عامًّا، فالعام يجوز تخصيصه، ووجه تخصيصه أن النفل تطوع، والتطوع يقتضي تخييرًا.

أدلة المالكية والأحناف :

أ- قالوا: ﴿ولا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ أفاد أن التحلل من التطوع بعد التلبس به لا يجوز، لأن فيه إبطال العمل، وقد نهى الله عنه.

---

(١) روح المعاني ٢٦/٨٠.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كنت أنا وحفصة صائمتين، فأهدى لنا طعام، فأكلنا منه، فدخل رسول الله ﷺ فقالت حفصة: وبدرتني [١] - وكانت بنت أبيها [٢] - يا رسول الله، إني أصبحت أنا وعائشة صائمتين متطوعتين، فأهدي لنا طعام فأفطرنا عليه. فقال: «**اقضيا مكانه يومًا**» [٣].

ب- وقالوا في جواب دليل المذهب الأول: المتطوع أمير نفسه، ولا سبيل عليه قبل أن يشرع، أما إذا شرع فقد ألزم نفسه، وعقد عزمه على الفعل، فوجب أن يؤدي ما التزم، وأن يوفي بما عقد. قال - تعالى -: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ [المائدة :١].

ثم إن اللفظ عام في الآية يشمل التطوع وغيره [٤].

الحكم الثالث: في شروط قبول العمل :

وقد ذكر العلماء لقبول العمل شروطًا منها :

١- **الإخلاص**: وهو أصل الشروط جميعها وهو عمل نادر عزيز، لا يمنحه الله عز وجل إلا لأحبابه من المؤمنين. قال - تبارك وتعالى -: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾ [البينة :٥]. وقال - جل شأنه- : ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ [الملك :٢]. وقال - عز شأنه- : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف :١١٠].

قال الفضيل بن عياض - رحمه الله - في العمل الحسن: هو أخلصه وأصوبه. قالوا: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ فقال: إن العمل إذا كان خالصًا، ولم يكن صوابًا، لم يقبل. وإذا كان صوابًا، ولم يكن خالصًا لم يقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا.

---

(١) أي: سبقتني إلى الكلام مع رسول الله ﷺ.

(٢) أي: قوية في الحق لا تهاب غير الله تعالى .

(٣) سبق تخريجه .

(٤) زاد المسير ٤١٣/٧، أحكام القرآن للجصاص ٣٩٢/٣، الجامع لأحكام القرآن ٢٥٥/١٦.

والخالص: أن يكون لله، **والصواب**: أن يكون على السنة، ثم قرأ قوله - تعالى -: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا ولا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف :١١٠]. وقال عز وجل: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء :١٢٥].

فإسلام الوجه لله: إسلام القصد والعمل. والإحسان فيه: متابعة رسوله ﷺ وسنته. وقال - تعالى -: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان :٢٣]. وهي الأعمال التي كانت على غير السنة، أو أريد بها غير وجه الله.

ويروى أن أحد الصالحين كان يقول لنفسه: أخلصي تتخلصي، فلذلك قيل: طوبى لمن صحت له خطوة لم يرد بها إلا وجه الله.

فالنفس تميل إلى حب الظهور والرياسة، وتميل إلى الراحة والكسل، وزينت لها الشهوات من النساء والبنين.

فأشد شيء على النفس: إخلاص النية لله عز وجل.

وكما حكي عن بعضهم: أنه كان يصلي دائمًا في الصف الأول، فتأخر يومًا في الصلاة فصلى في الصف الثاني، فاعترته خجلة من الناس حيث رأوه في الصف الثاني، فعلم أن مسرته وراحة قلبه - في الصلاة - في الصف الأول: كانت بسبب نظر الناس إليه.

وهذا، قلما تسلم الأعمال من أمثاله، وقَلَّ مَنْ ينتبه له إلا من وفقه الله - تعالى -[1].

وقال في الإحياء: العمل بغير نية عناء، والنية بغير إخلاص رياء. وقال يحيى بن كثير: تعلموا النية، فإنها أبلغ من العمل. وقال بعضهم: تجارة النيات: تجارة العلماء.

والمعنى: أن العلماء هم الذين يعلمون: كيف يعاملون ربّهم عز وجل ويربحون منه عز وجل أعظم الربح.

---

(١) البحر الرائق في الزهد والرقائق.

أما في الطاعات: فينوى في الطاعة الواحدة نيات كثيرة.. كمن يقصد الذهاب إلى المسجد، فينوي أنه زائر بيت الله، وقاصد كذلك صلاة الجماعة التي تعدل صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة، وينوي مع ذلك سماع الذكر من العلماء، وإفادة: العلم بالمعروف والنهي عن المنكر، إذ المسجد لا يخلو من جاهل يسيء صلاته. وينوي مع ذلك أن يستفيد أخًا في الله، فإن ذلك غنيمة ونصرة للدار الآخرة. وينوي كذلك ترك الذنوب حياءً من الله - تعالى -.

فما من طاعة إلا وتحتمل نيات كثيرة.

أما المباحات: فما من شيء منها إلا ويحتمل نية أو نيات يصير بها من محاسن القربات. كما قال بعضهم: إني لأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي فلا تعملن عملاً إلا بنية.

فالتطيب مثلاً، إن قصد به التلذذ والتنعم فهو مباح، وإن نوى به اتباع سنة رسول الله ﷺ فهو قربة، وإن نوى به التودد إلى قلوب النساء الأجنبيات والتفاخر، فهذا يجعل التطيب معصية.

فإذن: المباح بالنية الصالحة يرتفع إلى قربة، وبالنية الفاسدة يصبح معصية.

٢- أما الشرط الثاني لقبول العمل: متابعة السنة:

وهو أن يكون العمل مطابقًا للسنة، لحديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**»[١] وفي رواية لمسلم: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**»[٢] وهذا أصل من أصول الإسلام.

---

(١) رواه البخاري، كتاب: الصلح، باب: إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، حديث (٢٦٩٧)، ومسلم، كتاب الأقضية، باب: نقض الأحكام الباطلة، حديث (١٧١٨)، وأبو داود، حديث (٤٦٠٦).

(٢) رواه مسلم، كتاب: الأقضية، باب: نقض الأحكام الباطلة، حديث (١٧١٨)، وأحمد في مسنده (١٤٦/٦) حديث (٢٥١٧١).

فكما أن حديث: «**الأعمال بالنيات**»[١] ميزان الأعمال في باطنها، فهو ميزان الأعمال في ظاهرها.

وفي ذلك إشارة إلى أن أعمال العاملين كلها ينبغي أن تكون تحت حكم الشريعة، والآيات والأحاديث كثيرة في هذا.

فالاعتصام بالسنة نجاة؛ لأن السنة كما قال مالك مثل سفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلف عنها هلك.

وعن سفيان قال: لا يقبل قول إلا بعمل، ولا يستقيم قول وعمل إلا بنية، ولا يستقيم قول وعمل ونية إلا بموافقة السنة.

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم.

الحكم الرابع: في قوله - تعالى -: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ﴾ :

في الآية الكريمة دليل على أنه لا يجوز طلبُ الصلح مع المشركين، فأما إذا كان في الكفار قوة وكثرة بالنسبة إلى جمع المسلمين، ورأى الإمام المسلم أن في المهادنة والمعاهدة مصلحة، فله أن يفعل ذلك، كما فعل رسول الله ﷺ حين صده كفار قريش عن مكة ودعوه إلى الصلح ووضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين، فأجابَهم ﷺ إلى ذلك[٢].

هذا، ويؤخذ من الآية أن النبي ﷺ لم يدخل مكة صلحًا، وإنما فتحها عنوة، لأن الله - تعالى - قد نهاه عن الصلح في هذه الآية.

المعنى الإجمالي :

نادى الله - سبحانه وتعالى - المؤمنين مخاطبًا إياهم بوصف الإيمان، تذكيرًا لهم بأن هذا الوصف، يدعوهم إلى طاعة الله - جل وعلا - في أوامره ونواهيه. فطاعته هي السبيل الوحيد إلى الفلاح في الدارين. وطاعة رسول الله ﷺ من طاعة المولى - سبحانه وتعالى - فعلى المؤمنين أن يتبعوه في كل سُنَّةٍ سَنها.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٥٦/١٦، روح المعاني ٨٠/٢٦.

ثم نَهى الله المؤمنين عن إبطال أعمالهم.. فقد يقدمون أعمالاً كثيرة من الطاعة، ولكنهم قد تضيع أعمالهم بالمعاصي والرياء والعجب... إلى غير ما هنالك، فنهاهم الله عن ذلك، فعلى المؤمن أن يحافظ على ما يقدم من الطاعات.

ثم بين الله - تعالى - أنه لا يغفر الشرك، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، حتى لا يظن ظان: أن المؤمن إن أبطل عمله بالمعاصي فقد هلك، بل فضل الله باق، يغفر له بفضله، وإن لم يغفر له بعمله.

وإذا كان هذا أمر الكفار في الآخرة، فأمرهم في الدنيا كذلك من الذلة والهوان، فلا تضعفوا أيها المؤمنون في ملاقاتهم، ولا تجبنوا عن قتالهم، فالنصر لكم آجل أو عاجل. فلا تدعوا الكفار إلى الصلح خورًا، وإظهارًا للعجز، فإن ذلك إعطاءً للدنية، وأنتم الأعلون عزة وقوة، ورفعة ومكانة. وذلك لأن الله معكم يؤيدكم بنصره وقوته، ولن ينقصكم من أعمالكم شيئًا، بل يعطيكم ثوابَها كاملاً غير منقوص.

حكمة التشريع :

أمر الحق - عز وجل - بجهاد أعداء الله - سبحانه - من إظهار الضعف والخور أمام الكفار؛ فلأن المؤمن عزيز لا يذلُّ، قويٌّ لا يضعف، وهو يستمد قوته وعزته من الكبير المتعال، العزيز الجبار.

وهو الذي لا يذل من اعتمد عليه والتجأ إليه. ولما كان المؤمن هو صاحب الحق، يجاهد لإعلاء كلمة الله، ونصرة دينه، ويسعى في هذه الدنيا لإقامة صرح الفضيلة والعدل والإيمان.

لذلك كان من اللازم أن يظل مرفوع الرأس، موفور الكرامة، لا ينحني ولا يذل لغير خالقه. ولا يطلب المهادنة على حساب الكرامة، وبهذه النفس الأبية: يفرض شروطه على خصومه؛ لأن الإسلام علمه طريق العز والإباء. وصدق الله في قوله: ﴿ فَلا تَهِنُوا وتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ واللَّهُ مَعَكُمْ ولَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾. وفي قوله: ﴿ ولا تَهِنُوا ولا تَحْزَنُوا وأَنتُمُ

الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [1] [آل عمران :١٣٩].

ما ترشد إليه الآيات الكريمة :

١- إيمان المؤمنين يؤهلهم لمناداة الله - تعالى - لهم.

٢- أن طاعة الرسول ﷺ واجبة، كما أن طاعة الله واجبة.

٣- أن الشروع في الأعمال الصالحة يستلزم إتمامها.

٤- أن الإخلال بالأعمال الشرعية يفسدها ويحبطها.

٥- رحمة الله - تعالى - بخلقه حيث أمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر.

٦- المؤمن عزيز الجانب، لا يرهب أحدًا إلا الله - تعالى -.

٧- الله سبحانه لا يظلم الناس شيئًا.

* * *

[1] راجع روائع البيان ٢/٤٣١-٤٣٨.